

الفصل الحادي عشر

بين السيد والأمير

«باستطاعتي تجهيز ألف من الرجال المدربين والمسلحين»

- إريك برنس، مالك شركة بلاك ووتر وشركة غريستون

«نعم... إلى الجحيم أيها الجنجاويد»

- مدير تطوير الأعمال في شركة بلاك ووتر

بلهجة مضغمة بالحماس والتوقد قال لي غاري جاكسون، رئيس شركة بلاك ووتر: «إننا نسعى إلى أن نصبح شركة عسكرية خاصة»، مشيراً إلى أن بلاك ووتر أسرع الشركات الأمنية الأمريكية نمواً لديها طموحات تتجاوز كثيراً الوظائف التي تؤديها بموجب عقودها الحالية مع الحكومة الأمريكية. لقد كان للسجل الفاضح المثير للجدل لشركة النتائج التنفيذية وخليفاتها ساندلاين تأثير مشوّه في مصطلح «الشركة العسكرية الخاصة» بربطه بانطباع بغيض عن المرتزقة الأجانب الذين يستولون على ثروات المناجم بعد نزعها من سيطرة جماعات المقاومة المحلية. ويبدو أن هذا الانطباع لم يمنع غاري من الافتتان بالفرص التوسعية المستقبلية المحتملة في نشاط بلاك ووتر.

أُتيت إلى المقر الرئيس لشركة بلاك ووتر ومركز تدريب المنتسبين إليها في مدينة موي-كوك، في ولاية كارولينا الشمالية، للاجتماع بغاري جاكسون ومدير تطوير الأعمال، جيروم ماكلولي؛ كي أعرف منهما المزيد عن التطورات السابقة والخطط المستقبلية لبلاك ووتر. غاري جاكسون هو رجل ناهض المهمة في بداية الأربعين من العمر، عريض المنكبين مفتول العضلات، له لحية كعثون التيس يتخللها الشيب، وله حضور يطفئ على المكان الذي يوجد فيه. يصف غاري نفسه بأنه مدرب سابق في وحدة قوات سيل ويفتخر بأنه عضو في جمعية المتعافين من إدمان الكحول. أما جيري ماكلولي فهو طويل القامة

ضامر الجسم، وسبق له أن خدم ضمن قوات سيل، وهو هادئ متحفظ على النقيض من غاري المتقد المنفتح.

وبعد الاعتراف المفاجئ الذي صدر عن غاري حول طموح بلاك ووتر، فإن كلمة «المرتزقة» وليس «العسكرية» هي أول ما يخطر بالبال. وذكرت غاري بأنه لو ذهب إلى وسائل الإعلام بهذا العرض المتفائل، لإنشاء جيش كامل التسليح من المرتزقة يقدم خدماته مقابل أجر، لأصيب الإعلاميون بالصدمة والذعر. ويبدو أن غاري قد نسي السلبية العالقة في انطباع الرأي العام عن الجنود المرتزقة الذين يقاتلون بالأسلحة النارية مقابل أجر معين، وهو أمر في حد ذاته مدهش؛ لأن بلاك ووتر أصبحت الآن عضواً في جمعية عمليات السلام الدولي. وتقوم هذه الجمعية بتنظيم المحاضرات، وعقد الندوات والمؤتمرات، وغيرها من النشاطات الإعلامية لنشر الوعي وتعزيز استخدام الشركات العسكرية الخاصة في دعم جهود الأمم المتحدة في حفظ السلام. وهو أمر بعيد الاحتمال وإن لم يكن بعيد المنال.

ولتقويم قابلية هذه الفكرة للتطبيق في الواقع العملي، قمنا بمناقشة أشهر العمليات التي قام بها المرتزقة من القطاع الخاص، واتفقنا على أن أنغولا عام 1994، وسيراليون عام 1998، وبوغينفيل عام 1997 كانت أسوأ الكوارث التي خلفت أضراراً جسيمة لا يمكن التلطيف من حدتها. ويرفض غاري فكرة احتمال وجود أي شيء غير أخلاقي أو مشكوك فيه من الناحية الأخلاقية أو الفلسفية في ممارسات الجنود المستأجرين، ويركز بدلاً من ذلك على أن إدارة تم سبايسر في المثالين الأخيرين المذكورين أنفاً هي السبب وراء ما حدث من إخفاق. ويشير غاري إلى أن جيشاً محرراً من القيود في الميدان يمكنه أن يغيّر مسار التاريخ حين يخلع الحكام الطغاة، ويحقق الأمن، وينعش الحكم الديمقراطي.

«يمكننا نشر جيش كامل أو مجموعة عملياتية على مستوى كتيبة في أي مكان في العالم. ويمكننا تقديم الإسناد الجوي، والنقل والإمداد، وكل ما يلزم لتحقيق الاستقرار والأمن في أي منطقة... وسنملك القدرات الكاملة للحلول محل الجيش النظامي في بعض العمليات».

ويستشهد غاري بدارفور بوصفها أحدث عروض بلاك ووتر للعمل. وقد وصف كولن باول ما يحدث في السودان بأنه جريمة إبادة بشرية، لكن في ظل انشغال أكثر القوات الأمريكية في العراق، فإن الولايات المتحدة ليس لديها القوة الكافية من الرجال لنشر جنودها لتغيير الأوضاع هناك: «والأمم المتحدة تحتاج أمد الدهر لفعل شيء ما، في حين أننا جاهزون للتحرك رهن الإشارة. ويمكننا إرسال مئة شخص لاستكشاف الأمر أولاً»، ثم انهال غاري عليّ بأفكاره المتقائلة كالمدفع الرشاش: «ثم نرسل الرجال والمعدات». ثم أشار بيده إلى صورة حديثة التقطت في العراق لثلاث طائرات مروحية صغيرة من صنع شركة بوينغ تطير في خط متتابع خلف رتل من الآليات المصحفة، وفي المقدمة ثلة من الرجال شاهرين أسلحتهم، ويرتدون دروعاً واقية من الرصاص، ويحملون مزيداً من مخازن الذخيرة.

«لقد قمنا بتجهيز طائرة كاسا 212 بمدافع رشاشة، ويمكننا الآن التحليق والانتفاف بزواوية 38 درجة - وراح غاري يحاكي بكفه حركة الطائرة وزاوية طيرانها - «وحين نعثر على الأشرار، فسننقض عليهم هكذا». وبيتسم جيري ويقول متعاطفاً بابتهاج: «نعم، إلى الجحيم أيها الجنجاويد». وانفجر الاثنان بالضحك الشديد غير المتكلف على تلك النكتة.

والجنجاويد هم قوات الميليشيا التي تستخدم الجمال في تنقلها، وتقوم بعمليات القتل، والاعتصاب، وحرق القرى في دارفور. ونظراً إلى تلكؤ المجتمع الدولي في التجاوب مع هذه المحنة، وفي الوقت الذي تواصل فيه ميليشيات الجنجاويد عمليات القتل الجماعي لسكان جنوب غرب السودان، فإن قلة هم الذين سيعارضون الفكرة القائلة: إن شركة أمنية خاصة ستجعل من التدخل الإنساني خياراً أسهل، وأسرع، وأقل كلفة، أمام القوى الغربية. لكن مع ذلك، وعلى الرغم من النوايا الحميدة التي يظهرها المتحمسون لهذه الفكرة في هذه المرحلة الأولية، فإن تمكين القطاع الأمني الخاص الذي يملك القدرة والإرادة على شن هجوم عسكري مقابل أجر مالي متفق عليه يمكن أن يكون قفزة كبيرة في اتجاه خطير. ذلك أن 15% من تعاقدات بلاك ووتر الحالية، وبحسب ما يقوله غاري، هي عقود تتعلق «بعمليات سرية» لحساب وكالة الاستخبارات المركزية، فليس من الصعب تصور العودة إلى الأسلوب الذي كان متبعاً قبل إصدار قانون تشيرتش - بايك في تنفيذ

العمليات السرية في الخارج. ومع انعدام الشفافية في هذه القضايا، فإن الصك الذي يكتب للشركة الخاصة بدواعي الضرورة الطارئة والملحة» يمكن أن يغطي أي شيء. والواقع هو أن أكثر العمل السري ببساطة عمل ثابت ويتصل بأمن الموظفين.

ويصرح غاري بكل ثقة: «سوف ننشر قوة لحفظ السلام بحجم لواء، ويمكنك أن تنقل هذا الكلام عني بالحرف الواحد».

إن فكرة نشر جيش خاص ليست بالفكرة المستهجنة في الولايات المتحدة لسبب بسيط هو أن الميليشيا المدعومة من القطاع الخاص ساعدت في قيام الثورة الأمريكية وتحقيق الاستقلال. والشيء الوحيد المثير للجدل هو فكرة قيام شركة خاصة بإنشاء قوة شبه عسكرية ونشرها في الميدان مقابل أجر معلوم. غير أن غاري وجيري يؤكدان أن نظرتهم إلى الدور الحالي الذي يؤديانه هو امتداد للالتزامات المترتبة في ذمتهم بصفتهم جنديين سابقين في قوات سيل، وبصفتهم مواطنين أمريكيين. ولإلناصاف أقول: إن جاكسون لم يقل إن بلاك ووتر مستعدة لنشر جيش لمصلحة أي زبون وفي سبيل أي قضية. وقد فاتته أن يقيّد عباراته الطنانة ومبالغاته في تسويق خدمات شركته، فنسي أن يضيف عبارة «في خدمة الحكومة الأمريكية»، ونظراً لكونه من الجنود السابقين في قوات سيل، وأنه محاط بجنود سابقين من الجيش الأمريكي ومن قوات الشرطة، فإن ذلك القيد يكون مفهوماً ضمناً. وليس لدي أي شك في أن غاري وجيري لن يوقعا عقداً يتعارض مع ما تعتقده القيادة الأمريكية أنه من المصالح الاقتصادية والأمنية للولايات المتحدة. لكن إذا أخذنا في الحسبان سجل وكالة الاستخبارات المركزية في الانفلات والعدوانية في الأيام التي سبقت تشريع تشيرتس - بايك والرقابة النيابية، فإن ممارسة النشاط وفق أوامر القادة الأمريكيين سيكون على القدر نفسه من المشكلات المعقدة والمشينة. وهنا في أرض كارولينا الشمالية السبخة، يصر غاري جاكسون - وهو محق في اعتقاده هذا - على أن الجيش الخاص يمكن استخدامه لتحقيق أهداف خيرة.

قلة هم الذين يملكون الموارد الكافية لتجنيد وتدريب، ونشر جيش خاص، غير أن صاحب شركة بلاك ووتر، إريك برنس لديه تلك القدرات والموارد. ويعمل برنس هذه

الأيام على نشر هذه الرسالة حين يتنقل بين ردهات المباني الحكومية في العاصمة واشنطن، وفي لانغلي، والبنتاغون، ووزارة الخارجية.

أرباب الصناعة الجديدة

يعد بار الرؤساء الرياضي الواقع في فندق رينيسانس في واشنطن العاصمة مكاناً غريباً لعقد لقاء عمل بين سيّد وأمير¹. وقد قام كل من اللورد ويستبري أحد مؤسسي شركة هارت الأمنية؛ وجورج سيم مدير العمليات في الشركة؛ وإريك برنس بالإعداد لهذا اللقاء في العاصمة الأمريكية بغية التحاور بشأن العمل والتعاون المشترك. وصلت أنا، وويستبري، وسيم قبل الموعد وجلسنا في زاوية فارغة من البار حرصاً على خصوصية وسرية الحديث.

بلغ اللورد ويستبري، أو ريتشارك نيكولاس بيثيل كما كان اسمه قبل أن يرث لقب أبيه، منتصف خمسينيات عمره، وهو أحد الرموز البارزة في صناعة الأمن الخاص، وأحد أقدم المؤيدين المتحمسين للتوسع في نشاطها. وهو ضابط سابق في القوات الجوية الخاصة البريطانية «ساس»، ويغلب عليه الهدوء وراحة البال، ويستخدم عوينات مخططة الإطار، وتبدو عليه أبهة الرجل الإنجليزي الثري بقميصه المفصل يدوياً ومعطفه الصوفي الأزرق الداكن، ويتدلى شعره الفضي إلى أسفل كتفيه، ويتحدث بلهجة طبقة النبلاء، غير أن مسلكه يعكس تصرفات المراهق الداعر.

أما جورج سيم فهو الشخص المسؤول عن العمليات في شركة ريتشارد، وهو شخص يحب المبادرة، وتحقيق الإنجازات، وصاحب خبرة طويلة في القوات الجوية الخاصة البريطانية. وهو رجل أنيق، منفتح، جاد لا يعرف الهزل، وتبدو عليه سمات رجل الشرطة في بلدة صغيرة، ويتحدث بفخر واعتزاز عن نشأته ابناً لعامل في مناجم الفحم الحجري، ولا يخفي إعجابه باللورد ويستبري، ويصفه «بالأسطورة»، ويعزو جورج الفضل إلى اللورد ويستبري في وضع الإستراتيجية التي أرغمت جيش التحرير الإيرلندي على الجلوس حول

1- الاسم الأخير من مالك شركة بلاك ووتر هو برنس أي الأمير، أما الشخص الآخر في الاجتماع مؤسس شركة هارت فيحمل لقب لورد في بريطانيا ويعني السيد.

طاولة المفاوضات، مع أنه لم يقدم مزيداً من التفصيل حول هذا الادعاء. ويقع جورج وريتشارد على طريفي النقيض في الجيش البريطاني- فريتشارد ضابط ومن طبقة اللوردات، في حين أن جورج، واسع الاطلاع والقراءة، وحاد الذكاء من الطبقة العاملة.

أنشأ اللورد ويستبري عدداً من الشركات الأمنية الخاصة، وهو الآن يعد القوة الدافعة وراء شركة هارت. ويرأس هذه الشركة شخص سويدي حاذق اسمه أولي صنديبرغ، ويتمتع بخبرة في إدارة وكالة للدعاية والإعلان وشركة شحن. ويعد ريتشارد نجمهم الساطع الذي «يخلق لهم فرص العمل» مستخدماً شهرته في أوساط الجيش البريطاني لحشد الدعم وتوفير عقود جديدة للشركة.

بدأت الشركات الأمنية نشاطها في المملكة المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية، حين قام مؤسس القوات الجوية الخاصة البريطانية السير ديفيد ستيرلنغا بإنشاء خدمات كيلو ألفا (كاس) اختصاراً؛ وهي منظمة تهتم بجمع المعلومات عن الجنود السابقين في القوات الجوية الخاصة، بغية الاستمرار في تقديم الخبرة والخدمات الأمنية للعملاء المحليين والأجانب. وما زالت شركات بريطانية مثل شركة أوليف، وكروول، وبيغرام، وأي كي إي، تقدم خدمات متكاملة للجنود السابقين من القوات الجوية الخاصة. ويبقى «التخفي» هو أسلوب العمل المتبع لدى الجنود السابقين في قوات ساس.

قال لي اللورد ويستبري، بعد أن نفخ الرماد من «سيجاره» ماركة روميو جولينا في المنفضة أمامه: «إن أفضل العاملين في هذا القطاع هم فتية هارتفورد»، أو ساس. إن باستطاعة القوات الجوية الخاصة ... الانتشار فرادى إذا دعت الضرورة إلى ذلك. وإذا طلب إليهم أن يبقوا عيونهم على هذه المجموعة أو تلك، فإنهم يؤدون التحية، ثم ينطلقون تنفيذاً للأوامر». ويتميز الأفراد السابقون في القوات الخاصة البحرية بالقدرة على القيام بعدد من المهام في آن واحد، وبالمرونة في تعاملهم مع المشكلات المعقدة، وهذه نتيجة لأربع وستين سنة من الخبرة العملية في ساحة المعركة وفي العمليات المضادة للإرهاب». والمصدر الآخر للمتعاقدين العسكريين البريطانيين هو أسطول القوارب الخاصة، وهم من سلاح البحرية الملكي حتى النخاع. غير أن ويستبري يعدهم مربعاً مثبتاً في حفرة

مدورة حين يحاولون العمل في مجال المتعاقدين الأمنيين؛ لأنهم يفتقرون إلى المعدات اللازمة للمشهد المعاصر «ويجب ألا يتركوا وحدهم من دون رقابة». ويضيف ويستبري: «إن قصص نجاحهم يمكن أن تكتب على جلد خصيتي الهمستر»¹.

وبعد تقاعده من الخدمة في القوات الجوية الخاصة، التحق ريتشارد بيثيل بشركة ديفينس سيستمز المحدودة عام 1991، وهي شركة أسسها أليستر وريسون، وهو جندي سابق في القوات الخاصة البريطانية ساس-22 وشغل أيضاً منصب ضابط سابق في قوات الحرس الإسكتلندي. ومع أن مؤسس القوات الجوية الخاصة البريطانية ديفيد ستيرلينغ قد أقام شركته الصغيرة للاستشارات في لندن، إلا أن الهيكل المؤسسي لتقديم المهارات العسكرية لم يظهر إلا بعد إنشاء ديفينس سيستمز المحدودة. وقامت شركة البترول البريطانية باستخدام تلك الخدمات في المناطق التي تكون فيها عملياتها، وموظفوها أهدافاً مقصودة للثوار، والمجرمين، والجماعات المسلحة، وفي الدول ذات الموارد المحدودة أو التي لا تستطيع توفير الأمن.

ومع أنه يمكن عدّ ديفينس سيستمز ليمتد أول شركة أمنية خاصة في العصر الحديث، إلا أن النموذج الذي قامت عليه يشابه إلى حد بعيد استخدام «الحواجز» أو الجنود المحليين تحت إمرة ضباط أجانب لتوفير الحماية للممتلكات الاستعمارية في مناطق ما وراء البحار. وأصبحت ديفينس سيستمز نموذجاً للشركات الأخرى التي أدركت أن ثوار المقاومة يمكنهم تحقيق أهدافهم بسهولة عن طريق مهاجمة الشركات غير المحمية، بدلاً من الأهداف العسكرية. ووجه بعض المراقبين تهمة الارتزاق إلى بيثيل؛ لأنه يقوم بتدريب حراس محليين من أجل حماية حقول نفط الشركة البريطانية للبترول في دول العالم الثالث من هجمات الجماعات المسلحة، غير أن كلاً من بيثيل وموريسون أكدا بكل وضوح أنهما قدما التدريب اللازم فقط، وأنهما لم يكونا متورطين في العمليات.

وفي عام 1997، باع بيثيل وموريسون حصتهما في دي إس إل التي سجلت دخلاً سنوياً تجاوز خمسة ملايين جنيه إسترليني إلى شركة أرمور هولدينغز مقابل 26 مليون جنيه

1- الهمستر حيوان من القوارض يشبه الفأر والجرذ، ولكنه أقصر ذيلاً وأنظف طبعاً من الفأر؛ ولذلك يتخذ بعض الناس في الغرب حيواناً أليفاً، ويسمى في العربية أيضاً قداد.

إسترليني، وهي شركة لصناعة العربات المصنفة في مدينة جاكسون فيل بولاية فلوريدا الأمريكية. ثم تحولت شركة آر مور هولدينغز إلى شركة آر مور غروب وأصبحت تقدم خدمات عسكرية في العراق وحول العالم. ثم شرع مؤسس شركة دي إس إل بالبدء في تأسيس شركات أمنية جديدة.

أسس بيثيل في يوليو من عام 1999 شركة هارت وشركة أخرى أطلق عليها اسم شركة غلوبال مارين سيكيوريتي (شركة الأمن البحري العالمية) وهذه الأخيرة متخصصة في تقديم خدمات الأمن والحماية البحرية. ومن أوائل المشروعات المبكرة التي نفذتها شركة هارت هو العمل لدى الرئيس الصومالي؛ إذ تعد الرسوم التي تحصلها الحكومة الصومالية من سفن صيد الأسماك في مياهها الإقليمية شريان الحياة للصومال. واستخدم أرباب شركة هارت روابطهم الشخصية بالرئيس الصومالي لعرض برنامج يهدف إلى منع تعرض مناطق الصيد الصومالية لأعمال القرصنة البحرية.

ويفسر جورج الموقف قائلاً: «كانت الصومال هي مشروعنا الأول الكبير، وكانت مهمتنا الأساسية هي إصدار تصاريح الصيد لسفن صيد الأسماك التي تعد مورداً مالياً مهماً للحكومة الصومالية. والصيد الرئيس هو سمك التونة - وهو صيد ثمين. وأسماك التونة ذات الزعانف الزرقاء هي أرقى أنواع التونة. ويمكنك الحصول على عشرين ألف دولار من سمكة تونة واحدة. لذلك قمنا بعملية حسابية بسيطة. أمامك المصاريف الثابتة، وهناك الدخل الإجمالي المشترك بين حركة السفن القادمة والغرامات، ولكن عليك أن تكون حذراً في موازنة الأمور؛ لأن الزيادة في التشدد تؤدي إلى زوال الصيادين وتوجههم إلى أماكن أخرى. وبالمثل فإن التساهل يؤدي إلى زوال الأسماك. وقد حولتنا الحكومة الصومالية بحجز السفن المخالفة ومصادرتها. إن هذه الفكرة لو طبقت تطبيقاً صحيحاً لجلبت الملايين من الأرباح».

«كانت مهمتنا هي تنظيم هذا القطاع والتثبيت من حسن إدارته، وعليك توخي الحذر في تعريف من هم القراصنة. كنا نجلس على رأس القرن الإفريقي ونشاهدهم وهم «يشفطون» الموارد البحرية. لقد قمنا ذات مرة باحتجاز قارب أسباني كان يمارس الصيد

دون ترخيص. وهذه الممارسة تعود إلى مئات السنين. احتج الأسبان وقالوا: إننا قراصنة إنجليز. كان العمل ممتعاً. ثم اندلعت الحرب الأهلية، وانهارت الاتفاقية».

هناك مشروعات كثيرة قام بها جنود سابقون كان مصيرها الإخفاق من جراء فساد الحكومات المحلية. فضي سيراليون، أخفق مشروع مشابه قام به مرتزقة سابقون من شركة النتائج التنفيذية لسبب بسيط هو أن شركات الصيد وجدت أن رشوة المسؤولين الحكوميين أقل تكلفة من دفع الرسوم، وبذلك تمكنت من الالتفاف على دفع الرسوم أو التهديد بتوقيع الغرامة.

كانت المهمة الأولية لشركة هارت في العراق هي توفير الأمن والحماية لوسائل الإعلام. ويوضح جورج قائلاً: «حين بدأت هذه الحرب، كنت أتولى حراسة محطة الـ «بي بي سي». وهناك مجموعة أمنية خاصة داخل «بي بي سي» تسمى مجموعة كريون».

ولما بدأت الفوضى وحالة عدم الاستقرار بالانتشار في العراق، فازت هارت بسرعة بعقد لحماية خطوط الكهرباء. «كنا في أوقات مجنونة، وارتفع عدد الموظفين العاملين في الشركة من خمسين إلى سبعين شخصاً إلى مئة وسبعين في شهر واحد. وكان كثير من الأشخاص يأتون ويذهبون، كنا نبحث عن المتقاعدين العسكريين، لكننا كنا نفضل توظيف الأشخاص الذين نعرفهم. كانت الأخبار تنتقل من شخص لآخر. كانت هارت تتمركز قريباً من مدينة آينبا في جزيرة قبرص؛ لذلك كنا ندرك خفايا العمل في المناطق البعيدة». ويدرك جورج أيضاً أن المتعاقد الأمني الذي يعمل بعيداً عن الشاطئ يكسب راتباً أكثر من الأمريكي الذي يدفع جزءاً من راتبه للحكومة عن طريق الضرائب.

لم تستفد الشركات الأمنية الخاصة البريطانية من العراق وحسب، بل عملت على خلق توليفة أمريكية بريطانية للاستفادة من الحرب العالمية على الإرهاب. وقد عملت خبرة بيثيل الواسعة في القوات الجوية الخاصة البريطانية بدءاً من أفغانستان إلى جزر الفوكلاند إلى عُمان وإيرلندا الشمالية إلى العراق، مضافاً إليها خبرة جورج سيم المشابهة بصفته قائد فوج برتبة رقيب أول في قوات ساس 22، على تعزيز موقع شركة هارت في أماكن عجيبة. وقد تعلم جورج من عمله في ساس أن الإفراط في إنفاق المال أو العنف لا

يحقق سوى القليل. ويبين أن استخدام الحد الأدنى من القوة يجب أن يكون مصحوباً بذلك إنساني جيد: «إن لدينا طريقة محددة خاصة في أداء العمل. إن ما يحفزنا في أي يوم من الأيام هو التهديد والانطباع الذهني عن التهديد. ونحن نستخدم الحد الأدنى من القوة اللازمة. إذا كنت تنتقل بين الناس طوال اليوم شاهراً سلاحك في وجوههم ومطلقاً عليهم النيران، ألا تعتقد أن هذه النيران سترتد عليك عاجلاً أم آجلاً؟»

ثمة فارق شاسع بين طريقة عمل الشركات الأمنية البريطانية والشركات الأمريكية مع أنهما يعملان في حقل واحد. فالحارس الشخصي الذي يعمل في شركة بلاك ووتر يحاول تحقيق السلامة والأمن عن طريق السير بعدوانية وإظهار القوة، في حين يتجه الأسلوب البريطاني إلى الاعتماد على مزيد من الأعوان المحليين والتشبه بالسكان المحليين والاختلاط بهم والحرص على عدم تمايزهم؛ كي لا تلحظهم عيون المجموعات التي تسعى إلى مهاجمتهم. وتستدعي هذه الفلسفة أن تعمل هارت مع العراقيين الذين يجندهم الزعماء العراقيون المحليون - وهم المصدر الحقيقي للسلطة والتأثير في المنطقة المكلفون بحمايتها - وطبعاً هذه المعلومة حول من هو صاحب الأمر والنهي لا تتطابق دوماً مع آراء جيش الاحتلال. وقد قامت أجهزة الاستخبارات العسكرية الأمريكية بالتحقيق مع أحد شيوخ القبائل حول احتمال تعاونه مع المقاومة العراقية، ولكن في النهاية كانت نهاية هذا الشيخ على يد المقاومة التي دبرت عملية اغتياله بسبب تعاونه مع الأمريكيين. وبعد سجل طويل في حكم إمبراطورية كانت تواجه التمرد والعصيان في بعض الأحيان، أتقن البريطانيون التفريق بين درجات اللون الرمادي الموجودة في طبقات مجموعات المقاومة. وتعهد شركة هارت إلى أشخاص أجنبي، وهم في العادة جنود وضباط سابقون من بريطانية، وجنوب إفريقية، والولايات المتحدة، بمهمة قيادة فرق الحراسة الشخصية في شركة هارت التي تستخدم حراساً عراقيين. يقول جورج: «لدينا ألفان وخمسة مئة عراقي يعملون في شركتنا، ويتقاضى كل منهم أجراً مقداره عشرة دولارات في اليوم. وهذا الإجراء له جانب إيجابي دوماً، وهذا من شأنه أن يحسن أوضاعهم الاقتصادية، لكن هناك آثار سلبية؛ فالأشخاص الذين لا يحصلون على الوظيفة سيشعرون بالغضب». ويستخدم الفريق سيارات محلية مستأجرة أو مشتراة، ويبقون أسلحتهم أسفل النوافذ.

ويتحركون بأقل قدر من الصخب والجلبة. ويضيف جورج: «وهذا شيء تعلمناه في إيرلندا الشمالية. ولا يختلف الأمر عنه في العراق».

واستخدام هارت لأفراد عراقيين يعطيهم فهماً أفضل للأوضاع، غير أنه لا يخلو من جوانب خطيرة؛ ذلك لأنه ليس من المستبعد على «الجيش الكبير» مهاجمة واحدة من القوافل الأمنية الصغيرة. وفي أحد الحوادث، أقدمت قافلة عسكرية أمريكية على إطلاق النار على قافلة أمنية تابعة لشركة هارت، فأودت بحياة فتاة عراقية كانت تعمل مترجمة للفريق وكان ذلك في أول يوم من عملها في الشركة. وبعد أن فُرت القافلة الأمريكية، جاءت قوة رد سريع أمريكية لتهاجم قافلة هارت مرة أخرى. وربما كانت هارت تواجه خطر إطلاق النار عليها من الأمريكيين، إلا أن من الواضح أن قوافلها الأمنية تقوت أنظار المقاومة العراقية، مما يجعل هذه الشركة تتمتع بأدنى معدلات القتل والإصابة في صفوف العاملين فيها مقارنة ببقية الشركات الأمنية الغربية في العراق.

وصل إريك برنس إلى الاجتماع متأخراً، وكان يبدو أصغر من عمره الحقيقي الذي توسط الثلاثين. وكان يلبس بذلة محافظة أنيقة، ويضع دبوساً يحمل العلم الأمريكي على طية صدر معطفه. وكانت قصة شعره القصير جداً أكثر ملاءمة لضابط في سلاح البحرية منها لرجل ثري من أرباب الصناعة. وكما ذكرت من قبل، إريك هو المالك الوحيد لشركة بلاك ووتر. وتنتشر إشاعة هنا تقول: إن شركته تدر دخلاً سنوياً قدره 800 مليون دولار. ويقول النقاد: إن الدخل الإجمالي لشركته في أحسن الأحوال هو 600 مليون دولار. وثمة تكهنات تقول: إن عدد كبيراً من العمليات التي تتولاها شركته لا تدر ربحاً نظراً لإصراره على العقود ذات السعر الثابت. ويشعر إريك اليوم بالنشوة والحبور؛ لأنه فاز بعقد بعدة ملايين لتقديم الدعم لبرنامج القضاء على المخدرات في أفغانستان، وحل محل شركة تريل كانوبي في عقودها مع وزارة الخارجية الأمريكية في شمال العراق. وتعد الموازنة بين اللورد ويستبري المتشد الحذر وبين إريك برنس المتقد المندفع أمراً مدهشاً يعكس الفارق في الثقافة والأسلوب الذي يتبعه كل منهما في ممارسة العمل الذي يؤديه.

ينحدر إريك برنس الذي سبق له أن خدم في قوات سيل من مدينة هولاند بولاية ميتشغان الأمريكية، وهو مثال نادر على وريث ثري التحق بالجيش لسبب وحيد هو خدمة

الوطن. فتح أبوه، إدغر برنس، متجرّاً صغيراً عام 1965 لصب السبائك المعدنية أطلق عليه اسم برنس مشين كوربس. وبعد بضع سنوات من ممارسة العمل في هذا المتجر، ازدهر العمل وتطورت تجارته وبدأ المتجر الصغير بتطوير قطع غيار ومكونات تدخل في صناعة السيارات. واستثمرت الشركة قسماً كبيراً من أرباحها في تشييد مراكز للتسوق وفي قطاع العقارات، وتوسعت في النهاية حتى أصبح لديها موجودات تتجاوز مليار دولار. وبهذه الثروة الجديدة، قام إدغر بتأسيس مجموعة برنس لإدارة إمبراطوريته المالية المتنامية من العقارات، والمصانع، والاستثمارات.

كان إدغر وزوجه يشاركان بفاعلية في النشاط الاجتماعي والقضايا المحلية، وكانا من الأتباع المخلصين للمذهب الكالفيني المسيحي، وأسهما في تعزيز مصالح المسيحية المحافظة. بدأ إريك عمله في الخدمة العامة من قبل حين هيا له أبوه فرصة للتدريب العملي في مجلس أبحاث الأسرة، وهذا المجلس هو جماعة ضغط تعمل في سبيل تعزيز القيم الأسرية، وتتلقي تبرعات سخية من أبيه، وفي عام 1992، أمضى إريك ستة أشهر من العمل التطوعي في حملة جورج بوش الأب للرئاسة، لكنه غير ولاءه وتحول إلى العمل في حملة بات بيوكانون للرئاسة.

التحق إريك بكلية هيلسيلديل الخاصة ذات التوجهات المؤيدة لمذهب حرية الإرادة (ليبريتيرينزم) قبل أن ينتقل إلى الأكاديمية البحرية، ولكنه قدم استقالته قبل أن ينهي متطلبات تخرجه في الكلية، ولكن ليس قبل أن يتعرف إلى جوان، الفتاة التي أصبحت زوجته في المستقبل. انتسب إريك بعد تركه الأكاديمية إلى سلاح البحرية، وحصل على رتبة ملازم أول، وخدم برنس مدة أربع سنوات في قوات سيل فريق-8 (المتمركز في مدينة ليتل كريك بولاية فيرجينيا) قبل التغيير المفاجئ والمثير الذي طرأ على حياته.

أصيب إدغر برنس عام 1995، بنوبة قلبية حادة توفيت على إثرها، ووجد إريك برنس، الذي كان يبلغ من العمر وقتها سبعة وعشرين عاماً، أن قيمه الأسرية، وأخلاق العمل التي يؤمن بها، تلزمه أن يتولى إدارة العمل اليومي لمجموعة برنس. وزيادة في محنته، اكتشفت زوجته أنها مصابة بالسرطان. فاضطر إريك إلى ترك سلاح البحرية للقيام بمسؤولياته الجديدة، واتخذ الورثة قراراً ببيع القسم المتعلق بصناعة السيارات إلى شركة إس سي

جونسون كونترولز مقابل 1.35 مليار دولار، واضعاً بذلك أسرة برنس في قائمة الأسر الأكثر ثراءً في أمريكا. وبعيداً عن نطاق التجارة، تحوّل برنس إلى المذهب الكاثوليكي واستمر في المؤسسات التي تهتم بالقضايا الدينية، وحقوق الإنسان، والقضايا السياسية، كمنظمة التعاقد المسيحي الدولية، ومعهد السياسات العالمية، والحزب الجمهوري.

وفي منتصف عام 1997، بدأ إريك بأعمال الحفر في قطعة شاسعة من الأرض تبلغ مساحتها ستة آلاف أكر في مقاطعة موبوك بولاية كارولينا الشمالية، وهو المكان الذي أصبح فيما بعد مقراً لشركة بلاك ووتر. كانت فكرة إريك الأصلية هي إنشاء ميدان للتدريب على الرماية لتلبية احتياجات العمليات الخاصة في المجتمع المحلي. وأسس شركة بلاك ووتر تارغت سيستمز، التي تتخصص في صناعة أنظمة مبتكرة من الأهداف المعدنية التي يمكنها العودة تلقائياً إلى وضعها القائم بعد سقوطها جراء الإصابة. ثم جاءت 11 أيلول/ سبتمبر، وساعد الاندفاع نحو أفغانستان في مولد شركة بلاك ووتر سكيورتي، وبعد أن أصبح نشاط الأمن الخاص من أكثر مشروعات إريك درأً للأرباح، بدأ إريك بإنشاء المزيد من الأقسام المساندة لهذا النشاط، مثل قسم بلاك ووتر للمناطيد، وقسم كلاب الأثر، إضافة إلى قسم خاص بالطيران في ميلبورن بولاية فلوريدا. ويضم قسم الطيران في بلاك ووتر شركة برزدنشال إيرويز (كانت في السابق شركة طيران مفلسة) وشركة إس تي آي. وقام برنس بتصميم مجموعة متكاملة من اللباس الموحد والأجهزة الخاصة بالمتعاقدين الأمنيين الذين يعملون في شركته، بل قل: زياً موحداً شبه عسكري لجيشه الخاص به. وهناك مئات من الرجال في العراق يلبسون شعار الشركة المكون من برائن دب داخل دائرة، وتسديد هدف بندقية قتاص على صدورهم.

عمل إريك بمثابة وعزم على تطوير تقنيات جديدة، وهو يحب الطائرات كثيراً، بل يقود هو شخصياً طائرته الخاصة من طراز مولتي كرافان في التنقل بين مدينة تايسون كورنز في فيرجينيا الشمالية ومقر بلاك ووتر في موبوك في كارولينا الشمالية. أما أحدث ابتكارات بلاك ووتر في حقل الطيران فهو طائرة كاسا 212 التي أضيف إليها مدفعان رشاشان من نوع إي - 12، ويمكنها إطلاق أربعة آلاف ومئتي طلقة عيار 50 ملم في الدقيقة. وهذه القدرة النارية على إطلاق سبعين طلقة في الثانية توجد تياراً متصلاً من

النار المصاحبة لإطلاق قذائف اليورانيوم المنضب الكفيلة بتحويل عربة مصفحة إلى شيء يشابه قطعة الجبن السويسري.

قال لنا إريك: إنه يستثمر الآن في تطوير عربة مصفحة لنقل الأفراد خاصة ببلاك ووتر مصممة على غرار عربة كاسبر التي تصنع في جنوب إفريقية، وهي عربة مصفحة ذات سرعة عالية، وستكون العربة الجديدة مزودة بمحرك توربيني أكبر من المحرك الأصلي ويعمل بالديزل، أما نوابض العربة التي تحمل الهيكل والعجلات، فستكون من صنع شركة دنيس أندرسون صاحبة السمعة الأسطورية في مجال تصنيع الحافلات المتوحشة. وحين كان برنس يصف حافلاته المصفحة المتوحشة، وطأثرته المزودة بالمدفعية، وغيرها من الألعاب، بدا كطفل متحمس في الثانية عشرة من عمره في عيد الميلاد. ويوضح برنس ببهجة غير مقيدة: «سنقوم بتعديل العربات المصفحة من جنوب إفريقية، وسيتولى هذا التعديل الشخص الذي صنع حافلة غريفديغر (حفار القبور). وستقوم [أندرسون] بوضع النوابض، وهي لا تبعد كثيراً من هنا». ولما كانت أندرسون في العادة تصمم الحافلات المتوحشة بقوة ألف وخمسة مئة حصان بهدف وحيد هو تحطيم صفوف من السيارات والقفز في الهواء برعونة وتحذ، فإن الجمع بين هذه العربات والرجال المسلحين يبدو كأنه بعث غريب مستقى من مسلسل الإثارة الرديء الذي ظهر في ثمانينيات القرن الماضي بعنوان فريق - الألف.

من بين عقوده الأمنية المقدره بملايين الدولارات، يقدم إريك قوة عمليات بحرية لمراقبة نشاطات التهريب، وأعمال الإرهاب في المناطق الغنية بالنفط لحساب الحكومة الأذرية، ويرتبط بعقود مع وكالة الاستخبارات المركزية في أفغانستان وباكستان، ويقدم كذلك حماية لوزارة الخارجية الأمريكية في العراق، وإسرائيل، وهايتي. ونمت شركته من لا شيء إلى مراتب الشركات الأقدم منه في الوجود والأكبر منه في الحجم مثل دينكورب، وكبي بي آر، وكروول، وأرمغروب، وكونتروول ريسك غروب. ونجح في دمج تركيز سياسي، وعسكري، وأيديولوجي، في أعماله، وهي خصيصة ميزت شركته - كما يرى النقاد - عن نظيراتها من الشركات الأمنية المنافسة مثل إم في إم، وتريل كانوبي، ويو آي أس، وغيرها من الجهات المشهورة المختصة بتقديم خدمات الجنود المسلحين. وتحتوي

النشرة الأسبوعية التي تصدرها بلاك ووتر على تقارير عن الأخطار العالمية المستقبلية المحتملة، وعلى تحليلات تعكس الآراء اليمينية المتشددة، ومقالات داعمة للحرب على الإرهاب. وتضم الصفحة الأخيرة مقالاً بقلم قس مسيحي. ويعد موقف بلاك ووتر من الحرب على الإرهاب أكثر تشدداً من موقف حكومة بوش. إن ما يتمتع به إريك برنس من ثروة، ومن المعارف والأصدقاء، وتأثير، وتنان في سبيل القضايا التي يؤمن بها، يجعل من بلاك ووتر الوحيدة التي ينبغي تركيز الأنظار عليها.

يحتفظ إريك برنس بمكتب له في ولاية فيرجينيا؛ لكي يبقى على مقربة من الخيوط التي توصله إلى خزينة الدولة عن طريق فرص العقود. وقد عاد لتوّه من عرض أمام المسؤولين في الحكومة الأمريكية. ويتطلب نشاطه التجاري خليطاً دقيقاً من الزيارات حول واشنطن العاصمة. ويعرض باستمرار شرائح باور بوينت أمام أعضاء الكونغرس من الحزب الجمهوري، وأمام المسؤولين في وزارة الخارجية، وكبار ضباط البنتاغون، ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية. وذكر لي أحد أصدقاء إريك أن الطموح الحقيقي لإريك هو أن يجعل من بلاك ووتر الطابور الخامس للمؤسسة العسكرية الأمريكية.

وقد فرغ إريك اليوم من عرض أحدث عرض قدمه للحكومة الأمريكية حول تعقب الخلايا الإرهابية في العراق، ويرى إريك أن استهداف الجنود المشاة من عناصر المقاومة هو تضييع خطير للوقت والمال والجهد. وقال بتحمس متقد: «إنني أرغب في وضع خطة لتعقب صانعي القنابل... بدلاً من تعقب عناصر المقاومة، تعقب التقنية، استأصل المراكز الحقيقية للمنظمات». ثم عرض ملخصاً لخطة التي تقوم على تطوير شبكة مستقلة من الاستخبارات لاستهداف صانعي القنابل، ثم انتقل فجأة إلى الحديث عن أفكار أخرى كالإسراع في تشكيل جيش عراقي فاعل عن طريق وضع رجاله بين العراقيين في التدريب وفي المعارك.

وفي غمرة تحمسه المتقد وحيويته المفعمة حول فوائد الخصخصة، يطفح إريك بالأفكار الجديدة، ولا يتوقف عن ترديد عبارات «أفضل، أسرع، أكثر، فاعلية». وتأتي جميع الأفكار التي يعرضها على الحكومة الأمريكية بسعر ثابت ودون أي مخاطر على الحكومة، وتتشابك مع جهود حكومة بوش في خصخصة كل شيء بدءاً من الضمان الاجتماعي إلى

تسيير الحرب في العراق. ولا يملك إريك أن يمنع نفسه من الترويج لأفكاره حتى أمام المخضرمين من أصحاب الخبرة في هذا الحقل مثل ريتشارد وجورج. ووضح إريك كيف أنه جلب الفاعلية إلى ساحة المعركة: لقد حل عشرون شخصاً من بلاك ووتر محل مئة وثمانية وثلاثين شخصاً في وحدة تابعة لوكالة الاستخبارات المركزية، وأضاف بفخر: «لقد كان الجيش بحاجة إلى الدعم من ذلك العدد من الجنود لتقديم القدر نفسه من القوة التي قدمناها بعشرين شخصاً».

لا يعبأ إريك، وجورج، وريتشارد، كثيراً بالنقد الذي يوجهه أساتذة الجامعات إلى قطاع الأمن الخاص. ويقول إريك: «لقد حاولنا دعوة بيتر سينغر [من معهد بروكينز، مؤلف كتاب عساكر الشركات] لزيارتنا في العراق. ولكنه يرفض الذهاب، وحين سألته عن رأيه في نقد سينغر المستمر لاستخدام المتعاقدين الأمنيين المستقلين غير الخاضع لتنظيم الدولة، فكر إريك قليلاً، وقال ساخراً: «دعني أقل لك: إن بيتر سينغر يداه ناعمتان جداً».

أما شركة هارت، فأكثر خيبة أملها ليست من النقد النظري للتنظيم الذي يخضع له نشاطها، ولا من العقوبات التي تعترض حصولهم على عقود عمل في المناطق التي مزقتها الحرب في إفريقية. يعبر جورج عن ارتياح شديد من قيام الولايات المتحدة بمنح عقد بملايين الدولارات لشركة مبتدئة مثل شركة إيجيس التي يرأسها شخص معروف من المرتزقة هو تم سبايسر، ولمجموعات ثبت بالدليل العملي عدم كفايتها كمجموعة كستر باتلز التي تخضع لتحقيق بسبب عدد من المخالفات.

وحاول جورج تلخيص الفكرة غير المتصورة لحصول تم سبايسر على عقد بقيمة نصف مليار دولار بقوله: «إنني أسمى ذلك هرطقة تم» ومجرد التفكير في ذلك يكفي لإصابة جورج بالسكتة القلبية. «إنه شخص فارغ أجوف، يحاول أن يصنع لنفسه شيئاً مهماً، لقد حاول الانتساب إلى القوات الجوية الخاصة البريطانية ولكنه أخفق، إنه بحاجة إلى من يختبر قدراته .. يجب أن نتخلص من الأدعياء، وتم هذا هو على رأس القائمة».

وعادة ما يلتزم العاملون في الأمن الخاص الصمت حيال الانتقادات التي توجه إلى الشركات الأمنية الأخرى والعاملين فيها، انطلاقاً من الاعتقاد بأن التقليل من تسليط الضوء على إخفاق أفراد في هذا القطاع فيه فائدة للمجموع. ويعكس أحد أشد الانتقادات التي يوجهها ريتشارد إلى سبايسر البيئة الكتومة لهذه الصناعة حين قال: «لقد أفسد وأساء حين توجه إلى الصحافة لعرض قضيته. ولا تحل الأمور بهذه الطريقة».

وبالنظر إلى الموقف الدفاعي المشترك الذي يتميز به المنتمون إلى هذا القطاع، فإن استمرار جورج في ذكر تم سبايسر جدير بالملاحظة، حتى في ضوء الأخطاء الواضحة التي ارتكبتها سبايسر: «إنه - أي تم سبايسر - شخص بذيء غبي، تافه، حقير، لم ينجح قط في شبابه. لقد ترك أثراً سلبياً كبيراً في هذه الصناعة». وهز رأسه ممتعضاً.

أمسك اللورد ريتشارد لسانه عن فاحش القول في وصف سبايسر، ولكنه مع ذلك عبر عن ازدرائه لوسائل الإعلام على قولها: إن سبايسر كان عنصراً في القوات الخاصة البريطانية: «لقد أخفق تم في اجتياز متطلبات الالتحاق بقوات ساس، ومع أنه يتمتع باحترام في الجيش البريطاني، إلا أنه لم يكن يعد من المبرزين في الميدان».

وربما تأتي نظرة ريتشارد المتسامحة تجاه سبايسر من معرفته السابقة له. «إنه شخص يعمل بجد ومثابرة. وحين طلب إلى سبايسر العمل مع شركة النتائج التنفيذية وشركة ساندلاين جاء إلي يستشيرني. وقلت له وقتها محذراً: «إنك إذا دخلت هذا الباب، فلن تستطيع الخروج منه».

يعشق إريك هالة الجاذبية والغموض التي تحيط بالمرتزقة، والشركات العسكرية الخاصة، والأشخاص المؤثرين في هذا المجال، مثل ريتشارد وجورج؛ الرجال الذين تعقبوا القراصنة في الصومال، وقدموا الاستشارة إلى سلطان عمان، وقاتلوا الإرهابيين في شوارع بلفاس، وقدموا الحماية للأسرة المالكة في بريطانيا. أما ريتشارد وجورج فهما معجبان بالتحمس غير المحدود والحمية الوطنية التي يتمتع بها إريك التي تختلف عن النمط الهادئ والمحافظ الذي يطفئ على القادة السابقين في قوات ساس. وتثير المبالغ الكبيرة التي تنفقها الولايات المتحدة في العراق لإعادة اختراع العجلة اهتمام ريتشارد

وجورج. فهما يريان أن محاولة الولايات المتحدة الدخول في صراع مع المقاومة، وحماية أعمال البناء في البنية التحتية، وحماية موظفي الحكومة والعمال في الوقت الذي تعزز فيه مصالحها التجارية؛ هو عمل فعله جنود الإمبراطورية البريطانية، ومفوضو الاستعمار، والقراصنة التابعون لها قبل مئات السنين.

وتختلف ذاكرة التاريخ البريطاني حول استخدام المرتزقة والقراصنة عن نظيرتها الأمريكية؛ إذ يعود التقليد الإنجليزي في استخدام الشركات العسكرية الخاصة إلى عهد الحروب الصليبية، حين كان الأثرياء يؤلفون الجيوش الخاصة للقتال في الأرض المقدسة. ثم ظهر فيما بعد القراصنة أصحاب البطولات الملحمية، والإثارة والمغامرة من أمثال السير فرانسيس دريك¹ والشركات الاستعمارية التي تتمتع بامتيازات ممنوحة من التاج البريطاني الذين قاموا بتوظيف جنود محليين لفتح مناطق جديدة لمصلحة الإمبراطورية البريطانية. وكلمة «مرتزقة» في التقليد البريطاني تشير انطباعاً من الحيوية والاعتماد على الذات. أما في أمريكا، فالكلمة شعور قبيح يحيي في الأذهان واقع البطش في أنغولا، وأنباء قبائل الننج، وعصابات الكونترا، وفرق الموت في أمريكا اللاتينية، ولا تقوت مفارقة العاملين في قطاع الأمن الخاص قيام الأمريكيين وشركائهم البريطانيين بتوظيف المرتزقة في العراق وأفغانستان. وفي حين أن الحكومة الأمريكية لديها تاريخ محدود في استخدام المرتزقة في الخارج لأغراض محددة بالذات عن طريق وكالة الاستخبارات المركزية، عملت الحرب في العراق على تقديم تسويق عصري لوضع النظام بصيغة رسمية، وهو شيء تعلمه الإنجليز قبل عدة أجيال.

إن أحد أسباب اللقاء بين هارت وبلارك ووتر هورغبة الطرفين في معرفة نوع العمل الجماعي الذي يمكنهما تطويره معاً. وتأمل هارت في الدمج بين الخبرة التاريخية

* مستكشف وبحار إنجليزي (1540 - 1596)، قام بنهب السفن الأسبانية في أمريكا الجنوبية بأمر من الملكة إليزابيث الأولى، وبعد ذلك عبر مضيق ماجلان الذي يفصل المحيط الأطلسي عن المحيط الهادئ أسفل القارة الأمريكية الجنوبية وتوجه بسفنه شمالاً ليرسو في خليج صغير بالقرب من مدينة تعرف اليوم باسم سان فرانسيسكو، وأعلن خضوع تلك المنطقة للتاج البريطاني. ولا يزال الشاطئ الذي رسا فيه يحمل اسمه حتى هذا اليوم. وقام بعدها باستكشافات بحرية أخرى، وكان أول إنجليزي يدور حول العالم عن طريق البحر. أنعمت عليه ملكة بريطانيا بلقب فارس على إنجازاته في خدمة الإمبراطورية. (موسوعة إنكارتا بتصرف).

البريطانية ونمطها المحافظ باستخدام الخبرات المحلية تحت قيادة ضباط من الطراز الأول وبين الروح الأمريكية الشركائية المثابرة التي تتمتع بها بلاك ووتر. وقد شجع مشروعهما المشترك باختيار العميل شركة هارت بوصفها المتعاقد الرئيس. ويسعى إريك الآن إلى توسيع مجال نشاط شركته، وتسعى هارت إلى تصدير ثقافتها القائمة على العمل الكتوم والاستيعاب إلى ثقافة بلاك ووتر المقتحمة والمتخوفة من الأجانب، المستقاة في الأصل من ثقافة قوات سيل.

ذكر إريك في أثناء اللقاء أنه يريد أن ينشئ قوة لحفظ السلام والتدخل في إفريقية، مع التركيز تحديداً على منطقة دارفور جنوب غرب السودان. وعبر جورج وريتشارد عن شعورهما بالإحباط من انعدام الاهتمام لدى الحكومات ومنظمات الإغاثة من الاستفادة من خبرات جيش خاص لحل مشكلاتهم المتعلقة بالأمن والاستقرار في إفريقية. ويوجه جورج تركيزه على الكونغو، حيث مات الملايين من البشر هناك دون استثارة اهتمام يذكر من المجتمع الدولي، وحين أخفقت قوة حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة في التخفيف من معاناة السكان على الرغم من طول مكثها هناك.

ويزعم جورج أن «الكونغو تحتوي على كل شرور التفسخ الاجتماعي: الإيدز، وتجنيد الأطفال، والأمراض والأوبئة، والحروب، والجريمة، والقائمة تطول. كل شيء في كل قسم من الدراسات العلمية والإنسانية جرت الإساءة إليه في تلك المنطقة. ومع ذلك، يمكن لقوة صغيرة لحفظ السلام أن توافر الحماية الكافية للسكان بأقل قدر من الصعوبات».

ويرى إريك أن قيام الحكومات والأمم المتحدة باستئجار الجيوش الخاصة هو التطور النهائي لاستثماره التجاري في شركته الخاصة بلاك ووتر، التي تنمو بسرعة كبيرة، ولديها الاستعداد الكامل للاستفادة من توجهات حكومة بوش في خصخصة الحرب على الإرهاب. وحتى لا أنسى، راح إريك يذكرني مرة أخرى قائلاً: «إننا جاهزون لنشر كتيبة في أي مكان في العالم».

يمكن لشركة هارت بنشاطها الخارجي، ووضعها المالي الرفيع، واتصالاتها الحكومية حول العالم، أن تقدم الكثير لثقافة بلاك ووتر المصبوغة بالصبغة الأمريكية. وأعاد

جورج أهم درس تعلمه في أثناء سنواته في ساس: «لكي تهزم عدوك، ليس بالضرورة أن تقتل. هناك أثر سلبي وحتمي للقتل. وحتى حين كنا ن نصب الشركاء في إيرلندا الشمالية، كان هدفنا هو القبض على المشتبه بهم وليس قتلهم، وخبرة جندي القوات الخاصة في تلك اللحظة هي في غاية الأهمية. إنها شيء فطري. هذا ما نقدمه لهذا العالم. إنه شيء مقيت أن تطلق رصاصة تحذيرية. وليس من الكياسة ألبتة أن تطلق النار من سلاحك».

يريد برنس من هارت أن تساعده في تطوير معرفته وصقل مهاراته في العمل في المناطق الأجنبية، وهو أمر سيفيد منه كثيراً في أحدث مشروع تجاري له: شركة غريستون. وتمثل غريستون نقطة تحول لإريك؛ لأنها ليست هيئة أمريكية في الظاهر؛ بل شركة عسكرية خاصة خارج حدود الولايات المتحدة، وستقوم بتوظيف موظفين محليين بحسب التقليد الإنجليزي- فرقة أجنبية بقيادة غربية، على غرار ما كانت تفعله شركة النتائج التنفيذية، وساندلاين، وإرينز، وهارت.

يشعر إريك بالسعادة خصوصاً أنه ينوي إقامة حفل استقبال كبير للإعلان عن فكرة غريستون بعد أسبوعين. وسيقام الحفل في فندق ريتز كارلنتون في واشنطن العاصمة، ويتوقع برنس أن يشمل الحضور قائمة طويلة من الدبلوماسيين الذين يمثلون قطاعاً عريضاً من الأمم، إلى جانب رؤساء الشركات النفطية، وخبراء المال، ومصنعي الأسلحة، وغيرهم ممن يمكنهم الاستفادة من خدمات القوات المسلحة المخصصة. وسيلقي خطاب الافتتاح كوفر بلاك الذي عمل في السابق مديراً لمركز مكافحة الإرهاب التابع لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، ويشغل الآن منصب نائب المدير العام لشركة بلاك ووتر.

لا تبدو رسالة غريستون في أن تكون شركة عسكرية خاصة متاحة ولديها القدرات لحل المشكلات الأمنية على مستوى العالم، كما كانت تفعل شركة النتائج التنفيذية وخليفتها ساندلاين، رسالة غامضة أو خافية. والهدف المباشر في الوقت الراهن، هو تقديم خدمات الأمن الثابت للزبون الذي لا يمكنه تحمل تكلفة استخدام الأمريكيين والبريطانيين. فأجرة الجندي السابق في الجيش الأمريكي، والجيش البريطاني، أو جيش جنوب إفريقية، تتراوح ما بين 400 إلى 600 دولار أمريكي في اليوم الواحد. في حين أن

عناصر الغورخا، والتشيليين، والجنود السابقين من الدول النامية سعداء بتقاضي نصف أو حتى عشر ذلك المبلغ. ومع أن سوق المتعاقدين الأمنيين ذوي المهارات العالية يشهد نقصاً في العرض وزيادة في الطلب، إلا أنه يوجد وفرة في جنود الصف. وسيكون من بين الذين سيستمعون إلى الحجج التي سيعرضها كوفر بلاك لجدوى هذه الشركة في الاحتفال رفيع المستوى، الذي يتطلب لبس زي رسمي هو معطف أسود وربطة عنق فراشية الشكل، ممثلون حكوميون من الفلبين، واليمن، وإندونيسيا، وأنغولا، وروسيا، وكينيا، وتونس، ودول أخرى. وربما يمكن الجمع بين احتياجاتهم وبين عشق إريك برنس للعمليات شبه العسكرية السرية، وأفكاره المحافظة الهجومية، وفلسفته الشركاتية التوسعية في العمل، شركة غريستون من إقصاء الحدود المفروضة على الأمن الخاص.

وتقدم النشرة التعريفية بمشروع غريستون والموقع الإلكتروني الخاص بالمشروع عرضاً لخدمات التدريب، وتقويم الحالة الأمنية، وخيارات الحماية التي يمكن توقعها من الشركة. وربما فات الناظر غير المهتم ملاحظة هذه الفقرة التي صيغت بعناية:

فرق اشتباك سباق:

إن عناصر غريستون جاهزون لإعداد قدراتهم بما يتناسب مع المتطلبات الأمنية القائمة، أو الطارئة لاحتياجات الزبون في الخارج. إن فرقنا مستعدة للقيام بجهود فرض الاستقرار وبسط الأمن، وحماية الممتلكات واستعادتها، وإخلاء الموظفين والعمال من أماكن الخطر في أوقات الطوارئ.

باختصار: ستقوم غريستون ببيع الخدمات نفسها التي كانت تقدمها شركتنا النتائج التنفيذية وساندلاين؛ إذ كانت أولى عمليات النتائج التنفيذية تقوم على استخدام المرتزقة «للاستعادة ممتلكات توني بكنغهام، وتحديد معدات التقيب عن النفط؛ أما عملياتها الثانية فكانت شن حملة هجومية لدحر ثوار حركة يونيتا، بعد ستر تلك العملية بوصف عمليات تدريب؛ أما مشروعها الثالث فكان القيام «بجهود بسط الاستقرار والأمن» في سيراليون. وبالنظر إلى فرص التعاقد المتاحة أمام غريستون، فإن المستقبل يعد بزيادة الغموض حول الخط الدقيق الذي يفصل بين العمليات الأمنية الخاصة وبين

العمليات العسكرية الخاصة. ومن المستحيل التنبؤ بالوجهة التي سيقصدها جيش إريك، ولكنها بخصوص الزعماء الأجانب، ستقدم حتماً إضافة تحسينية كبيرة ومشروعة إلى المؤسسة العسكرية التقليدية والعمليات السرية.

بات واضحاً لي من ذلك الاجتماع أن ثمة جداراً عالياً لا يزال يفصل بين نظرة هارت الإنجليزية للأمن وبين نظرة الشجاعة الجديدة في عالم المحافظين الجدد. وفي حين لم يزل حلم إريك بنشر جيش خاص ينتظر التحقق، إلا أن القائمين على شركة هارت قد سبق لهم أن ساروا في ذلك الطريق من قبل. وقد وضعتهم مهنتهم العسكرية في أماكن مثل عُمان وأفغانستان حين كانوا يقودون وحدات كبيرة من الجيوش المحلية، وقد طُور كل من ريتشارد حين خدم برتبة نقيب في قوات ساس، وجورج حين خدم برتبة رقيب أول في وحدة ساس 22، وعلى مدى عقدين من الزمان مهارات في التعامل مع أعمال المقاومة، والحروب القذرة، والعمليات السرية، ليس من السهل اكتسابها. وفي حين يروج برنس لصورة زاهية للشركة العسكرية ذات التقنية العالية، والفرسان الذين يجوبون الشوارع، التي يمكنها حل أي مشكلة أمنية للزبون عن طريق استخدام القوة الكاسحة والأسلحة المتقدمة، يقوم ريتشارد وجورج بهدوء بالترويج لفكرة الحلول الهادئة، التي تراعي الثقافة المحلية. وكرر جورج مرة ثانية عبارته الشهيرة أمام إريك برنس قبل أن ينفذ الاجتماع: «إنها تطبيق الحد الأدنى من القوة».

